

الغزل

تابع ج ٢ : ١٢

الحكومة المصرية في الشام^(١)

كانت الدولة العثمانية الى أواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تمرره
تنوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوة أو بطول زمنها عليه حتى تنتهي
بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طالت عليه معاودة التنوبات قد يألّفها ويظن أنه
يزي من كل خطر على حين كثرت آلامه . والادوار العصبية أشد ظهوراً في
ألم الجسم واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع أن يدفع ضرراً
ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معها قوة وفي
الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكمت فيها من أمراض عضالة وساورها من
الاجوع . غفلت الدولة عن تعهد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسوسها بنيانها فكانت
تعلو وتسفل وتطفو وترسب بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلطين ؛
تقوم بالفرد ولا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول ادارة . وأهم
ما امتاز به جندھا الطاعة للرؤساء فأصبحت في حروبها يوم ضعفها تستهلك أكثر

(١) من محاضرات الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق التامة
في نادي المجمع ، ونص بنشرها بمجلة (الزمراء) ، وهي من مواد كتابه « خطط الشام »

مما تستحصل لان جيش الانكشارية وهم مستندها في قوتها عراه الانحلال فعدت الوقعة التي كان يكتفى فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين ألفاً ثم يشغب ولا يعمل عملاً . ولا عبرة بالمدد اذا كان المجموع أقرب الى التفسخ ومعنويات المقاتلين الى الضعف

ان بعض الغوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من جللتها في هذا القرن . والذي قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتمرده على رؤسائه وبضعف الزعماء واختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج والوزراء والملوك في دار الملك . فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفس خناق الامة من عربدتهم . وان كانت العقوبة التي نزلت بهم في الشام أخف لان بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم . وبعد أن تخلصت الدولة والامة منهم صعب على الدولة في بضع سنين أن تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات . وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طويلاً وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل . وكيف يتأتى ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام ، لا تنفأ منتقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان

ولم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد علي في مصر - ومصر لعمري أم كل عجيبة - ان يتدرج بعد قتل الممالك في مراتب القوة والسيادة حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوته البرية والبحرية وينشط الزراعة والتجارة وتسو به الامة ان لا يكتفى بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على أوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التي جرت على الاصول في تنظيم جيشها

وادارتها ونشر المعارف بين أفرادها . وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل المختلف الامراض اصعب من مداواة جسم له مرض واحد اذا عولج كان اقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطأ واسعة سرية ، والدولة العثمانية تنظر الى هذه المظاهر باهتة وقلدا يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فاصبحت دولة ابن عثمان لا تكفى عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت باخرى عليها واستفادت من تفاهم وتباين اغراضهم بعد ان كانت أليم شبابها تتال من دولها مجتمعات ومنفردات بدهدها وعُددها ، ولكن الجيش الذي يصل الى اسوار فينا على عجلات البقر ويقا تل المحاربين والمسلمين بالسيف والنشاب أصبح يحتاج الى اسباب في النقل اسرع وسلاح في الفتك أقطع . غذا يحتاج الى علم وعُددا اكثر من احتياجه الى اسماء ضخمة وعَدَد . واصبحت السياسة والادارة والحرب علوما عملية ، والمدرسة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المنتشع بها افرادها . فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجمل من مظاهر القوة ؟ وكيف لا تتجلي الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ودول تحركت ونمت وربت ؟ وبين امة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها وهي عنهم غريبة وهم عنها غريباء لم تمثلهم ولم تمثل فيهم

نسب ميشو انحطاط الدولة العثمانية واخفاقها في حكم البلاد التي افتتحتها الى عدة أسباب اهمها الجهل والجود والغرور . قال ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية التي براد بها حماية اوربا اخذ الاتراك يضيعون شيئاً من

قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية . فكان العثمانيون
 باديء بدء الأمة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم . وبه احرزت
 التفوق على الامم التي تريد اخضاعها لسطوتها . وغدت أوروبا في القرن السادس
 عشر ولعظم ممالكها جيوش يقاومون بها اعداءهم . وانتشر النظام والتربية العسكرية
 بسرعة بين شعوب النصرانية واخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاما ورقيا
 في المغرب . على حين كان الاتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها
 الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتا من العلوم التي انتشرت بين اعدائهم
 وجيرانهم . ويزاد على ذلك ما عبت بكيان الاتراك من الخرافات وقلة التسامح
 فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا على ولاية يحاولون أن يحكموها
 بنظمااتهم ويفرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم . فاقضى لهم من ثم أن يبدلوا وجه
 كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في البلاد التي ينزلونها وأن يقضوا على
 أهلها أو يضعونهم بحيث لا يستطيعون أن يناجزوهم الشر ويرفعوا رؤوسهم
 فيهم . ولذلك يلاحظ أن الاتراك استولوا مرارا على بلاد المجر فكانوا يرحلون
 عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ولم يستطيعوا بحال أن يؤسسوا فيها مستعمرة أو
 موطنًا ثابتًا وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال
 ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى أقطار أبعد والاحتفاظ بها
 وبهذا نجت ألمانيا وإيطاليا من غارات الاتراك وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا
 العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم وينزلوا فيها كثيرا من
 أبنائهم

قال « ومن الاسباب الرئيسة التي أضعفت القوة الجندية في الاتراك الحروب
 التي كانوا أعلنوها على أوروبا وفارس فقد صدم جهادهم الفرنس عن حملاتهم على
 النصارى ، وجهادهم في النصارى أضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت

طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ماوراء النهر وقفة آسيا أصبحوا عاجزين عن قتال أوروبا ، فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من أمم الغرب وظلوا يمدثد بين عدوين تقريباً بينهما زوالهم . ولقد حمل الاتراك معهم - مثل جميع البرابرة الذين أتوا من شمال آسيا - نظام حكومة الاقطاعات وكان أول عمل يأنيه أولئك الشعوب الرحلة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك فجلاً قط للاقطاعات ان تكون وراثية لتكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة هذين الشعبين واحدة وما أشبه اشياع روميلوس باشياع عثمان . ويتفاوت الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان اللعنايين ظلوا كما كانوا في الاصل أما الرومان أيام فتوحهم فلم يزهّدوا في معارف من فتحوا بلادهم ولم يستنكفوا من الاخذ بعاداتهم ولا معبوداتهم . لم يقتبس الاتراك من الامم المغلوبة شيئاً وشهدوا في أن يظلموا على بربريتهم ولم تتأصل الارستوقراطية الوراثية في جانب الاستبداد المطلق وربما كان ذلك أحد الاسباب التي قضى بها على الامة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون ان بالارستوقراطية تنهذب الاخلاق وتنشف عادات الشعوب وبواسطة الطبقة المتوسطة تنتشر المعارف وتبدأ المدنية . ان فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط بل انه حلّ لنا معنى جود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات وكيف لم يتقدم قيده

غلوة . وما كان في المساواة المطلقة - وفي حكومة تغار من كل مالا تكون هي منشأه
ومصدره - شيء من المنافسة والقدرة وحب المجد ، وبدون هذه الاسباب يقضى
على كل مجتمع أن يبقى في الجهل الاعمى الذى كان عليه لأول أمره ، وإن
يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهد الاتراك في العلوم والآداب
ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في أيدي مواليمهم . وكانوا في الحقيقة
أعداءهم ، وذلك لان الاتراك كانوا يشتمزون من كل جديد ومن كل مالم يحملوه
معهم من آسياء ، فاضطروا أن يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في
أوروبا . وهكذا لم يكن لهم تقص ولا ابرام في مصادر سماعتهم وقوتهم وفي متانة
جيوشهم وأساطيلهم . ولا يخفى ما أضعفه الاتراك بوناتهم عن السير في معارج
الرقى العسكري الذي أصاب منه الأوروبيون قسطاً موفوراً . ولما كان الشأن
في حروبهم لجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم
البشرية وما أبرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات كان العقل المساعد
هو الخيف للشجاعة . شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البريتوريان
في الرومان في حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك أن
يختاروا أميرهم سواء في ذلك شعوبهم وجيوشهم وكانت مصلحة الانكشارية
تقضي أن يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من
الجديد . أما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة
أكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا
على مدينه الاستانة كانوا يوجهون أنظارهم على الدوام الى البلاد التي أنشأهم
وتناسلوا فيها فكانوا أشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في أوروبا ، من ورأهم قبور
أجدادهم ومهاد عبادتهم وكل ما يقدسونه ويحترمون ، وأمامهم شعوب يكرهونها ،
وأديان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراءى لهم أن الباري تعالى يلعبها . وأهم

ما أخر الأتراك وقادهم إلى انحطاطهم ذكرى مجد سالف وأعجاب وطني لاتناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم : فكانوا يستهينون ولهم القوة بالآخطار التي تهددهم فإذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرايين وإذا غلبوا حملوا على رؤسهم « هذا رأي المؤرخ الأفرنسي في العثمانيين وعلة انحطاطهم . وقال غيره وأغرق أن شأن الأتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها إذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلاً مؤقتاً ضربوا خيامهم فيه إذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم في الأرض التي ينزلونها سوى آثار أطنابهم وعمد خيامهم فقط

أظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض عاهلها مثلاً بحسبها من التجدد في الممالك وبدأت أمارات قوته بعد أن قرض المماليك من مصر فلم يسم الباب العالي إلا الاعتراف بسلطنته ومراعاته ومحاسنته شأنه مع كل عامل أحرز قوة على شرط أن يزدى الجباية في أوقاتها ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي أسعد طالماً من سلطانه لأنه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما لصطدم به السلطان محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصريين قبولاً لدعوته واستعداداً للمدنية . وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون تعصب لقومية ولا عصبية شعبية

تقام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد بل فتحت مصر بفضل صدرها لذلك . بيد أن محمد علي لم يقف عند الحد الذي بلغه من الاستئثار بوادي النيل وطمح إلى التوسع في الملك . ولكن أي البلاد يفتح؟ هل يتوسع في أفريقية؟ في صحراء ليبيا وصحراء النوبة . وهي أصقاع لا توازي العناء وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل في شمالي أفريقية أو في أواسطها

أم يقصد الشام وهي مفتاح كل فتح وفيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها
وبينها وبين مصر من وجه الشبه ما لا ينكر ثم لا يصعب عليه إذا خفت عليها
أعلامه أن يتقدم إلى الامام ويملك من بلاد العرب والترك ما طالب له ولا يعلم
ما تحته الأيام

بحسب محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد أن خلق له سبباً
معتقلاً لفتح الشام . وذلك أن بعض فلاحى انشورية بمصر ضاقت نفوسهم من
إعانات عمال محمد علي بالجندة والضرائب فلم يسعهم إلا أن يهاجروا إلى جهات
غزة ملتجئين إلى والى عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي
ارجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم إلى الشام فامتنع الوالى من ذلك بدعوى
أن الاقليين تابعان لسلطان واحد فاستشاط محمد علي غضباً خصوصاً وهو الذى
كان استرضى خاطر الدولة على والى عكا وكانت غضبت عليه ودفع عنه ستين
الف كيس غرامة اقضتها منه لترضى عنه فتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح
الشام فامر سنة ١٢٤٧ هـ بأعداد جيش للسفر إليها عن طريق العريش وطريق
البحر فى آن واحد وذلك لمحاصرة عكا من جهتين وعين ولده قائداً عاماً للجيش
وسليمان بك الفرنساوى قائم ، قام له وجند ستة الايات من المشاة وأربعة من الفرمان
ومعهم أربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة وما يلزم ذلك من الأعداد
والنؤن . فوصل ابراهيم باشا مع الاسطول إلى حيفا وفتحت له غزة ويافا والقدس
ونابلس وكان أهل حيفا يبلغون اذ ذاك ثلاثة آلاف نسمة وعكا أشهر مدن الشام
بحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل فدام حصارها نحو سبعة أشهر تحاصرها من
البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة ومن البر ثلاثون ألف جندي وبعد
فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا وإلى
حلب قترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا والتقى في ضواحي حمص مع

القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاق الزمر لا نظام له ولا درية فابلى المصريون بلاء حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصي وغرق كثير منهم فيه واختفى عثمان باشا في حماه ثم احتل ابراهيم بعلبك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين اتوه بانفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الاتراك في أرض حصص وأتاه الامير بشير الشهابي الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بفتح المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية وأخذ عبد الله باشا واليها أسيراً وحمل الى مصر مكرماً ثم فتح الاسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وبعد أن فتح ابراهيم عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير واهراء حاصيتاً وراشيتاً فجمع علي باشا والي المدينة عسكراً من الاكراد واحداث البلد قدر بعشرة آلاف وكشف ابراهيم باشا بمنظاره جنود الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الاكراد ونبه على العسكر النظامي أن يقاتلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم بل يطلقون البنادق في الفضاء فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاهبوا وقاتل الاكراد جهدهم حتى غلبوا وفي أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم ويؤخذ مما قاله البيطار أن ابراهيم باشا قد ساعده الامير بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس لان عبد الله باشا والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان ذلك من أسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية وأن ابراهيم باشا بينما كان جيشه على عكا يقامى الاهوال ويتجندل منه الرجال اثر الرجال جاء عباس باشا ابن محمد علي باشا الى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم واقترب أهل جبل لبنان وتلك النواحي فرقتين فتابع النصاري منهم الامير بشير المتفق مع ابراهيم باشا وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس

وحص ودخلهما بلا قتال . قال : وتوجه ابراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والدخائر وعاونوه أهل الجبل من المسيحيين والدروز وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع اليهم ابراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ثم دخل عسكر ابراهيم باشا عكا من الابراج على السلام وذكر بعضهم أن من جملة من قتل من عسكر ابراهيم باشا اثنا عشر ألفاً ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ ارسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم أن يمكثوه من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه ان لا نتمكنك من الدخول أصلاً . وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الى لقاءهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوه قتالاً يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل أو رجلان ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها على باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد شوربجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو أربعة آلاف وفرّ باقي العسكر والباشوات وكاثروا نحو ثلاثين ألفاً وغنم أموالهم وعنادهم . وسار بعد ذلك الى حماه فحلب فملكها بلا قتال . ثم جاء لإنطاكية وعينتاب واللاذقية . واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتله عظيمة . وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين ألف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهمز الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والاسرى ٣٠٠٠ وتقهقر الجيش التركي الى حلب . وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه أهلها خوفاً من انتقام ابراهيم باشا فتقهقر الى بيلان فتقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين

مدفعا . وكان غنم منه أولا اثني عشر مدفعا ثم غنم أربعة عشر مدفعا آخر وقتل من العثمانيين أربعة آلاف وقتل من المصريين خمسمائة وخمسون ووقع في يد ابراهيم باشا الفان من المساكر النظامية اسرى من الارناؤود والهوارة فأعطاهم الامان وادخلهم في جملة جنده واختفى حسين باشا ولم يعرف له أثر واجتاز ابراهيم باشا جبال طوروس . وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر وفي رواية اخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات ، ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين الفا فالتقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا أسيرا في أيدي المصريين وانهزم الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الوقعة نيفا ومائة مدفع وكثيرا من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون ألفا

ويقول مشاقة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى أربعين الفا من الترك على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثنا عشر الفا وكان أبقي من عسكره جانبا . للمحافظة في البلاد المفتوحة وهلك الآخر في الحرب أو الوباء ففُكَلِب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لم تستطع الدولة أن تجهز في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل أسطولا الى عكا يصد عنها أسطول محمد علي باشا أو يقيم العثرات في سبيله كما انه استغرب كيف أن العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقعا يردون به عادية أعدائهم . وانهزموا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعا وألفي أسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جنديا •

وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول حتى وصل الى كوتاهية وأراد أن ينزل بورصة بحجة انه ليس له في الاناضول حطب ومؤنة في الشتاء وكان الطريق الى الاستانة أمامه مهيمًا لا يقف فيها ما يوقف سيره . وأهل الاناضول

والاستانة راضون عنه . وكان ابراهيم باشا يشيع أن مقصده من غزوته هذه توطيد دعائم السلطنة . وكانت حاشيته من الاوربيين نحته كل الحث على أن يواصل السير ويفتح الاستانة وأن لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما أخذه من آسيا الصغرى . ولو استمع لهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلا من دولة الاتراك فأعاد محمد علي بذلك الدولة العربية

قال دي لاجوفكيو ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد وهذا الطموح بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك وهذه المشكلة التي كان يتأني أن يكون منها عراك بين قوميتين العربية والتركية بقيت مقصورة في دائرة معينة من الحرب لم تتعد حد القتال بين ملك وأحد عماله الناشئين عليه . ولما رأى السلطان محمود ما آلت اليه حاله عرته الدهشة وداخله الفزع فطلب معاونة الدول العظمى علناً على التأثير محمد علي باشا ، وحرص خصوصا على معاونة روسيا التي أصبحت بعد معاهدة أدرنه ترى نفسها حامية الدولة العثمانية وليس من مصلحتها أن تكون هذه الدولة قوية مقاومة . فأخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي . واستدعى فيلق البغدان وهو مؤلف من أربعة وعشرين الف مقاتل ليأتي الى الاستانة وعقدت معاهدة في كوتاهية على أن تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمد علي ويرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك والخطبة تلقى في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين دعيت معاهدة (خنكار اسكله سي) وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جمل المضايق في قبضتها فهلمت قلوب اوربا لذلك وأخذت انكسرتا بحسب لهذه المعاهدة الف حساب

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقره في انطاكية فكان يحضر

أحيانا الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب غن أُمّ حالة بلاد الاكراد وكانت منتقضة على الدولة العثمانية اذ ذلك . وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية « الحاج ابراهيم ، والي جدة والحبشة وسر عسكر حلا » وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا « سر عسكر عربستان » أي قائد جيوش بلاد العرب

وفوضت ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتها الى حنا البحري وكان هذا من المقربين جداً من محمد علي . ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) وأقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكماً مستقلاً ورجع مشاقه ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلق التي ذهبت براحة الاهالي والتعمدي والحروب التي أفتت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بإدارة واحدة وهي دمشق ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ أوامره في أنحاء البلاد للبعد . وعهد بتنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري . وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الفرق بدمشق اكثر منها في حلب . لان الحلبيين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ولم ينزلوا عن القلعة حالا ، وقال مشاقه بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالا لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك بعض أعوانه

وكان من أول أعماله الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة وترتيب المالية وجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وأرباب النفوذ ان استنقلوا ظل الدولة المصرية وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمص دماء الضعفاء مع ان البلاد رأت في أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن

في ربوعها وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة وعتت تربية دود الحرير ودود القرمز واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيساً يتقاضى الأمير ضعفها ويدخر في خزائنه الخاصة المال الزائد على المفروض . وأكّد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكرقرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم . وأخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيها الثائرون مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس . وغرب العلماء والشعراء ، ورخص للأجانب في إرسال معتمديهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقيم ابنه ابراهيم - عملاً بايعاز أبيه - لتجنيد الشبان ولولم ينقل كاهل الاهلين بالضرائب وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً وأعظمها خمسمائة قرش فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع معظمها عليهم مثل أهل حلب وأهل دمشق

لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ما وقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنة بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيان النصيرية فنذب الأمير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكرياً خيم في البهلوية فهرب النصيرية وتركوا مواشيهم وغلالمهم وأمتعهم وفروا بقتلهم وقضيضهم ففتحها المعسكر وأحرق لهم خمس عشرة قرية وقطم أشجارها ثم أحرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين أخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الأمير والنصيرية . وعال مشاقة هذه الوقائع بأن المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر وطلب أموال أميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه - نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتمنون رجوع حكم الانراك وابتدأ الناس

ينفقون عليهم واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ مركزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فارسل الحاكم عسكرياً لقتالهم من لبنان وحاصبيا ورأشياً فذوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال واعدم العناية واستخفاهم بالخصم آلت الحال الى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى اللاذقية يتمتعون بأذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكرياً كثيراً وقهرت أهلها

وأوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بألفي مقاتل الى طرابلس سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٣٣ م ليجتمع هناك بسليم بك أحد قواد المصريين لتأديب العكاريين والحصنيين والصابئين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع والغالب أن وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى صافينا وعكار والحصن أو امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت وانطاكية واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج أهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو عشرين يوماً وكان لبيت أبي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنة ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فلما ضاق الحصار بابراهيم باشا أرسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكرياً ولا مالا فرضى قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته فرجع على عقبه في المال واشتغل بالقتل والنهب والسلب فهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بمسكره . واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يدر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من أهله ولم يزل يتبع أثر قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله

في دمشق وقتل أربعة من أولاده بالسيف وأمر بجمع السلاح من جميع البلدان
 لاجرم أن ابراهيم باشا اخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو
 ما فعل أبوه في مصر وكان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه الى حين لان صاحب
 البلاد الاصلى لم يقطم آماله من استرجاعها وهو يسعى بكل ممكن الى استخلاصها
 من غاصبها وكل ما تنفر منه قلوب الرعية يفرح منه لانه يخدم مصلحته فمسألة التجنيد
 قلت من أنصار الحكومة المصرية في البلاد لفلة اعتياد الناس الجندية في ذاك
 العصر اذ أصبح الناس يعدون التجنيد من باب القاء النفس في التهلكة وزال
 من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف وهذا الروح كان
 قد ضعف في الأمة بعد أن حكمها الغرباء قرونا بالظلم والقهر . قال في دائرة
 المعارف الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من
 أهلها الى آسيا الصغرى والعراق ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية نتج
 منه انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان
 الغضب العام لم يكن أقل منه . وجاء في تاريخ حماه ان ابراهيم باشا كان يحشد الناس
 لبناء السكينة العسكرية في حماه ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون
 منه الى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الانهار وربما قلم الانسان عين نفسه أو
 قطم اصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية

ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وأبوا
 تجنيد أولادهم فأرسل والى دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فالتقوا به في جنوبي
 اللجاة في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ثم أرسل عليهم قائداً اسمه
 محمد باشا فقاتلوه وقتلوه وأهلكوا خلقاً كثيراً . ثم أنفذ ابراهيم باشا احد رجاله
 شريف باشا الى قرية لم الزيتون في وادي الاوي في أربعائة فارس فقتلهم الشيخ
 حمدان الدرزي عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا أن سبب هذه

الوقائع ان ابراهيم باشا طلب ١٨٠ نفرًا للجنود من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز ابنان وأرسلهم الى عكا فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عاد الى بلادهم قلبوا ظهر المجن فتوجه اليهم الجند بقيادة علي أغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصمايدة ومعه عبد القادر أغا أبو جيب فمقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة في هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الانفار وأرادوا الاستعاضة عن الاشخاص بالبدلات العسكرية. فقال البصيلي اني ارسل مراسلة استشير بها أفندينا وعلى ذلك قر القرار. وفي تلك الليلة كبست الدروز المساكن وأذاقتهم كؤوس النية، وقتل أبو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز، ولم يسلم من القتل سوى البصيلي وخمسة عشر نفرًا. ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الوقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف. وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم أن المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم. وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامي. وروى مشاققة أن العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة علي دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلاً من الهوارة قتلوا الا قليلاً، فأرسل ابراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع، مع أن الدروز يومئذ لم يكونوا أكثر من ١٦٠٠ مقاتل ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أخرى فرأى الرعب قد دب في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد ودارت رحى الحرب بينهم وتمهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى أن قادوهم الى سهل دامة وهناك رجعوا عليهم وأعملوا السيف فيهم وفكروا

بجمعهم . ولما عرف ابراهيم باشا أن عسكره ذعر من شجاعه الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كلوت بك يستحضر منه محلولاً قاتلاً فرفض هذا إجابة طلبه وحاول أن يمنعه من استعمال تلك الواسطة . لما فيها من القسوة التي تشمل الحريم والاطفال مما

أما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولاً والرعية ثانياً . ولما عجز عن إخضاع العصاة أُلزم علماء الكيمياء بصنع محلول سلباني ألقاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشا وأنوا الى اقليم البلان

وكان دروز وادي التيم و اقليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان . ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكرياً من الارناؤط فأنجده أبوه بأربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعة أيضاً فلم يظفر بهم وكانت دروز البلاد تنجد دروز حوران سرّاً أولاً ثم أخذت تنجدهم علناً . أما نصارى لبنان فتجنّدوا أولاً مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم

وتجمع العصاة في قرية حنية من اقليم البلان فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلاً . وبلغ شبلي العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعة وحاصر العسكر المصري في سراي حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين واضطرت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ففر الجند المصري منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بمن

معه وأعمل في اقبينهم السلاح قتل منهم نحو ثلثمائة رجل وأنشئت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون . ثم جمع ابراهيم باشا ما أنشئت من عسكره في البقاع وعاد فخم في قرية عيحا قرب راشيا فأنه الدروز ونحسوا قبائله في غابة هناك وأنشبت الحرب بينه وبينهم فلم يظفر بهم . ثم اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكافهم عليهم ابراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب . فقتلوا من الجند المصري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقيبها الى الفرار . قيل انه قتل من الدروز في الوقعة الاولى ٦٢٠ عبدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم . ثم حدثت وقعة في قلعة صخور وتفرق الدروز وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فاجابه اليه وجعله قائدا على الف فلوس هواره . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفاة فاستسلموا له ومات من عسكره « ٥٠ » جنديا دقا

بدأ الاشمزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر أمره الى ابنه ابراهيم باشا باحتكار اصناف الحرير للحكومة وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي وبتجهيز عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الحنق لزرع السلاح من الشاميين ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطئ الاردن ، وفي هذه الوقعة التي انتهت بقتل قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق قتل ابراهيم باشا كثيرا من زعماء الانراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه وأخذ الدروز والنصيرية والموارنة يستعدون للثورة فهينهم عليها عمال الدولة العثمانية وانكسرت انحرص العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روي كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنتين التاليتين لامر التجنيد نحو عشرين ألفا

ومن انتقض على ابراهيم باشا أهالي الكرك فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حاكمة من جنده لم يرض إلا قليل حتى تمرد السكان وذهبوا الحامية

والموظفين عن بكرة أبيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آتية الى مصر فأصلوها الطريق وأهلكوها الا قليلا

كانت الدولة العثمانية - بمعاونة انكلترا - لا فتاً منذ دخول المصريين الى الشام تدس الدسائس في البلاد ، وتسميل رؤساء المشائر وأرباب الزعامات والاعيان بالمال تارة والوعود الخلابة أخرى . وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني - وهو خمس سنين أيضاً - ومضى أ كثره وأدى المقرر عليه من المال ارتأى العثمانيون بإيعاز انكلترا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل ، وفي رواية في مائة الف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها طائفة من كبار ضباط روسيا وبروسيا ، وزحف ابراهيم باشا في أربعين الفاً ، حتى انتهى الجيشان الى سهل نزيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك القتال بين الجيشين ثمانى ساعات ونصفاً ، فتراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة آلاف وقيل أربعة وأسر اثنا عشر الفاً ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الوقعة ١٦٦ مدفعاً و ٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين أربعة آلاف ، وقتل المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة اسداسهم

انتهى خبر الهزيمة الى الامستانة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلس ابنه السلطان عبد المجيد فتي في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي وليس للدولة جيش وقد قدمت اسطوطا في الاسكندرية سلمه لمحمد علي أمير البحر احمد فوزي باشا . فرأى السلطان أن يسادد ويقارب ، فارادته الدول على أن يتربص ريثما يتوقفون الى حل مرضي بإجماع الآراء بينهم ، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانية بالطرق السلمية

الحرية. فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تجدد معاهدة (خُنْكار اسكلهسي) بين العثمانية والروسية وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تماونه الدول علي ان تبقى المضائق والدرديل تحت اشرافهن . وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكا وراثيا له ولاولاده من بعده فارضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاهدة فرنسا، وقضى علي محمد علي أن يخرج من اذنة والشام، وان لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا أي فلسطين من أرض الشام . قرر ذلك في مؤتمر لندن (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا

بيد أن محمد علي أبي ان يخرج من الشام، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستونيفورد فضربت بيروت واستولت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور، وقاومت عكا بعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية فذائفها ثلاث ساعات أصابت مستودع البارود فانفجر وقتل عددا كثيرا من الرجال، ثم اضطرت المساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله وتناصره برأيها ومعاونتها الادبية

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ - ١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلخانة أو البراءة السلطانية، وهي أول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحريتها، ويضع نظاما لاستيفاء الضرائب على نظام واحد، ويطبق القانون العسكري، وغير ذلك من الامور الادارية، فصفتت أوروبا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته، وكان هذا القانون مما أوحى به انكلترا وأمله عقلاء السياسة من الاتراك في العاصمة

ولما أحس أهل لبنان بواسطة دعاة انكلترا ان الدول ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة - ان لم ينجل مختاراً - أخذوا يناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المسلمين من المصريين . وكان الامراء الشهابيون والمعميون يقوون العامة سرّاً ويحثونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس بانفاق الدول الاربع النمسا وانكلترا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم . واشتدت الفتنة بين أهل الجبل والامير بشير ، وأخذت البلاد بالخراب ، المتصل ، وحرقت ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبي حريماً

وكان أمير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته

وقبض المصريون على ٥٧ رجلاً من أعيان لبنان - بينهم أربعون من أمراء الشهابيين - كانوا يدعون أهل بلادهم نطلع طاعة المصريين ، فنقام ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، وأخذ أعوان أمير لبنان ينتقمون من الرعايا يجمع السلاح والخيول وطرق المغارم

وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي ، في أربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني وألفي جندي أوربي . فأخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخل البلاد ويستدعي جنوده من الساحل . وبحسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والجروح والضائم من العسكر المصري لم يكن أقل من عشرين ألف جندي

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فزق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبيوت الارامل واليتام ، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي ،

خارجاً من ' « باب الله » ، ونزل في سهل « القدم » ومنها قصد الى مصر عن طريق البر

وقبل مسير ابراهيم باشا من دمشق أرسل خالد باشا التركي من الساحل احمد أغا اليوسف في شرذبة من الجيش ، فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل ، فهزمه شر هزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوفرة . اما احمد أغا فنزل بمسكره بعيداً عن دمشق في إحدى قرى الزبداني ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالأمر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام ، فخرج أهل دمشق لوداعه ، وخطبهم وحرّضهم على الاخلاص الى الطاعة والسكينة ربنا تعود الحكومة العثمانية

وعينت الدولة علي باشا - الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا - وكان أشد الاترك تعصباً . وبقي فنصل انكسار المسترود - الذي أثار الموارنة على ابراهيم باشا - مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة أعمال عاملها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتمزله ونصب ذلك فتنصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمير مطلق

أراد محمد علي أن يقاوم دول اوربا ويظل في الشام . ولكنه علم ببعده نظره ان ذلك متعذر ، لان اسطولها ضرب بيروت وأحرق الاسطول المصري وأنزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان الموارنة بعد ان كانوا عضد ابنه ابراهيم أصبحوا بعاونون الاوربيين على طرده من الشام . وتقدم أمير البحر بابيه امام الاسكندرية ، وأخذ من محمد علي مهادنة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لانكسار - بالالتحاق مع النمسا - في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكانه خلع طاعة المصريين

والرجوع الى الدولة العلية وبمباراة اخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانكليزية وأن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانكلترا ممأ حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها



كانت حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها، لأنها وضعت أصول الادارة والجبائية، ورفعت أيدي أرباب الاقطاعات، واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ولم يخلص من ذلك الا الامير بشير والى لبنان فإنه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر، وظل يتصرف بلبنان. وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين

قال مشاقة : وكانت الدولة التركية ذات خبرة باحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية، فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعاً بارجاع نفوذهم. وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة، وتبعهم الدروز في حوران ووادي النسيم، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم في الشام بالحروب والقلائل ١٥.

ومن مآثر الحكومة المصرية - التي عددها - مشاقة تجفيفها المستنقعات وتحرير الافندار في مجار خاصة وتحديد أسعار اللحوم والعدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم وطبقاتهم لانكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه وانفاق كل مال في وجهه المخصص له. ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحاسب لانه اعتاد أن يكون محكوما لا حاكماً نفسه، عبداً لا حراً. وأكد ان الانكليز استخدموا رجلا اسمه المستر وود وكان من رجال السياسة فجاء كسروان

بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية وأخذ يث الدسائس حتى اعلن الكسروانيون المعصيان وقتلوا جيشا من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال أياما وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً ، وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار

ومدح مشاققة الامير بشير الشهابي الذي كان عضدا قوياً لابراهيم باشا وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ م الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة للاستول على الساحل الى مالطه فبقي فيها منفيا ولم يستطع أن يعود الى امارته. وقال : انه كان شجاعاً مقداماً وقائماً بمحنكا وسياسياً ذاهية خدم الجزائر بكل أمانة ونشاط وخدم خلفه وحفيده مثله وخدم الدولة التركية والدولة المصرية وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها وكان صادقا اذا وعد أميناً على واجبه ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر

وانتقد مشاققة على حكومة محمد علي تفاعسها عن اشهار استقلالها على الدولة التركية ، مع انه كان من أسهل الامور بعد ان اكنسحت البلاد، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكاً مستقلاً وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنية وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان . ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية لاجبرتها على الاعتراف بسيادته، لانه استحال عليها اخراج جنوده من الشام أو صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم ، أو لكانت على الاقل اضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً



انبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصري بل العربي اذا نهياً له زعيم

عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته وانه لم يضره في القرون الماضية الا فتاؤه في الحكومة التركية بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والبركي اخوان . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل ان الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يائلمها

كتب المستر برانت - قنصل انكلترا في دمشق - الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ ما تعريبه : « لما كانت الالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضي المهملة . وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارزاء الواقعة حوالي حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية . وفي هذه الاماكن اكره العرب على احترام سلطة الحكومة وجعل السكان بأمن من اعتدا آتهم . وكان الشام بأسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي منظم وغير منظم بأمره ابراهيم باشا . فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطده الامن ومد رواق الثقة

« وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك اذ كان عليها أن تصالح عدة امور مختلفة وأن تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التي كانت سائدة

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغواث امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبثه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من

الذل لا تطاق . ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفي بكل شدة فلم يكن يستوفي منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلاهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل « وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج قاعفوا من الخدمة العسكرية . والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة اسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات . وكمن مرة ذهبت الجنود بإمرة ابراهيم باشا لانتلاف بيوض الجراد وما تقف منها . وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والتماء فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء واصابت شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات حوران وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون . »

قال « ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقاص ظل سطوتهم - وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد - حتى عاد القوم الى نبد الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ومنيت المداخل بالنقص واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول انه لا يوجد ثم ظل للامن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التي تركها المصريون « هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزي . وقال بيرييه الافرنسي في كتاب « الشام على عهد حكومة محمد علي » ما نرى به « ما من

بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظهر من مظاهر الحياة وليس مثلها في البلاد قضت الشقاء من تقلبات الزمان وسقيت بالدماء فان صُقعها المدهش وجمال اقليمها وتنوعه ومركزها المهم الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نهبت اطاع الفاتحين وجلبت غير مرة على الشام ويلات الحروب

« وكانت الشام على عهد الانراك العثمانيين مقسمة الى اربع ايلات : حلب وطرابلس وعكا ودمشق. وقبل مجيء ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تبعت السلطنة، فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان. وكثيراً ما كان السلطان سلطاناً بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى اربع ايلات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة. وكثيراً ما كان الباشاوات يشنون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ ياران. ولطالما شنت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق

« وكان الدم يجري لافل شبهة والعذاب الاليم يحل فيشنت الباشاوات « ويخوزقون » ويجعلون البصاة على الحديد ويجزون الروس. وبذلك كان يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضوا للحرق والشنق »

قال : « ومن الحق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة. وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين. وذلك بان استمال اليه قلوب اشrafهم وأعيانهم والقي بينهم الشقاق ضيقاً عند الاقتضاء وبذلك تسير له حكم البلاد ووضع ضرائب شديدة عليها

ما كان القوم يتجهلونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان مختلفة وكان شريف باشا حاكما على الشام كله ونحت يده الحكم وكان طامعا في المال . اهـ



هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا وماهي في الحقيقة الا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منها ابنه ولا يصدر الا عنه في الخطوب ولا يقطع أمراً دون الرجوع الى رأيه حتى جاءت احكام المصريين نموذجاً في الادارة

ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لأرادت عملها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور لا يعمدون الى حسن الادارة ويتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم في اعنات الرعية والقاء الجبل على الغارب

وهذا مادعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة الانكليزية التي حملت الدول على موافقتها على رأيا لها تريد تحقيقها في مصر والشام لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها أحيانا . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها في البحر المتوسط . واذا اردنا أن ننظر بين المؤرخ المنصف نرى برطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على امانى محمد علي بل امانى العرب من انشاء دولة عربية كما أوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين في نجد والحجاز حرباً عواناً . لانه كان

يخشى أن يؤسسوا أيضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عثرة في سبيل أمانى تلك
الحكومة في شبه جزيرة العرب

ولو نظرنا الى ما وقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح لم نره الا قتالا مع
العثمانيين أى قتال الجيش المصرى مع الجيش العثماني . واذا كان في الجيش الذي
دافع عن عكا أو عن دمشق أو يوم حصص مثلاً اناس من الاكراد والموارنة
فهم هؤلاء ايسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يجاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم
على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفتنه أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى
صفوفه فأخذوا يقاتلون معه ولم يلتو القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع
الاجانب وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية
ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال
والاقلان المدن والسواد الاعظم من الناس استقبلوه واخلصوا له وشعروا بحسن
ادارته ولا سيما المسيحيون والامراةيليون وكلهم ادرى بالفرق بين حكومته
وحكومة الترك

حَرَكَةُ النَشْرِ وَالنَّالِفِ

﴿ كتاب السياسة لافلاطون ﴾

« استخراج احمد بن يوسف »

الطبعة الوطنية في بيروت « بعناية جيل بك العظيم » ٧٤ ص بقطع الزهراء
دارت مناظرة بين أبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب^(١) وبين معاصر له
يتعصب للفرس ، وبرى ان اليونان انما برزت في الحكمة دون السياسة . وأراد
(١) الذي طبع له في الناصرة سنة ١٣٣٢ كتاب المكافاة في ١٢٨ صفحة (تولى في
حدود سنة ١٣٤٠ هـ)